مجلة قرطاس الدراسات الحضارية والفكرية
ISSN : 1112-993X E-issn :2710-8147
المجلد: 11 العدد: (02) - 2023 / ص36- ص50.

حصار الأمير عبد القادر لعين ماضي بين الضرورة السياسية والدسائس الفرنسية

The siege of ʿĀīn Māḍī by Emir ʿAbd al-Qādir between political necessity and French intrigues

د.محمد دراعو[1]، جامعة أبي بكر بلقايد (الجزائر)، pctowntlm@gmail.com.
مخبر الدراسات الحضارية والفكرية

تاريخ الاستلام: 2023/06/20	تاريخ القبول: 2023/07/14	تاريخ النشر: 2023/07/31

الملخص:

تحاول هذه الدراسة إبراز أوجه الصراع بين محمد الصغير التجيني بعين ماضي والأمير عبد القادر، وذلك بمقابلة بين الضرورة الشرعية والسياسية لحصار عين ماضي لدى الأمير عبد القادر الموجبة لتوحيد جهود المقاومة في مواجهة التغول الفرنسي، ووجه الاستحالة العسكرية والاستراتيجية في تنفيذه، بما مثلته الطريقة التجانية من سلطة روحية واقتصادية وتحكمها في تجارة جنوب الصحراء ولها باع طويل ومريدين مخلصين وحصانة مدينتها. وتهدف الدراسة إلى تبيان بعض الجوانب الخفية للدور الفرنسي في هذا الصراع، وما تمخض عنه من مآلات أثرت سلبا على مقاومة الأمير عبد القادر، في مد نفوذها بالمنطقة.

كلمات مفتاحية: الأمير عبد القادر؛ محمد الصغير التجيني؛ الاحتلال الفرنسي؛ عين ماضي؛ الطريقة التجانية.

Abstract:

This study attempts to highlight the aspects of the conflict between Muḥamad al-ṣaġīr al-tīğānī in ʿĀīn Māḍī and Emir ʿAbd al-Qādir, by contrasting the legal and political necessity of the siege of ʿĀīn Māḍī with Emir ʿAbd al-Qādir, which dictates the unification of the resistance efforts in the face of the French tyranny, and the military and strategic impossibility of implementing it, as represented by the tīğānī Path of A spiritual and economic authority and its control in the sub-Saharan trade, and it has a long history, loyal followers, and the immunity of its city

Keywords: Emir ʿAbd al-Qādir; Muḥamad al-ṣaġīr al-tīğānī; the French occupation; ʿĀīn Māḍī; the tīğānī Path.

[1] د.محمد دراعو ، pctowntlm@gmail.com.

مقدمة:

يعتبر موضوع الأمير عبد القادر وعلاقاته بالطريقة التجانية من الموضوعات التي لا زالت بعض جوانبها غامضة وتحتاج الى دراسات معمقة، بالرغم من وجود دراسات وكتابات حاولت إماطة اللثام عن هذا الموضوع، في هذا السياق يأتي تناول موضوع حصار عين ماضي من طرف جيش الأمير عبد القادر جوان 1838م جانفي 1839م، كمحاولة لإزالة الغموض واللبس عن بعض الأحداث المحيطة بزحف الأمير تجاه عين ماضي(المدينة) والدوافع الكامنة وراء هذه الحملة (الحصار)، وتسليط الضوء أيضا على بعض الفاعلين والمحرِّكين للأحداث من طرفَي الصراع (الأمير عبد القادر من جهة ومحمد الصغير التجيني من جهة أخرى)، دون إهمال أو إغفال للدور الخفي لفرنسا وجواسيسها وعلى رأسهم ليون روش ودوره الخطير في تسميم علاقات الأمير بالتجانيين.

من هذا المنطلق فإنه لا يمكن للباحث فك أسباب وحيثيات إقدام الأمير على مواجهة التجانيين عسكريا وفرض سيادته عليهم إلا بالعودة الى المشروع السياسي الوطني الذي انخرط فيه جميع مكوِّنات الشعب الجزائري في كل الجهات. وعلى هذا الأساس تشبَّث الأمير عبد القادر بمبدإ وحدة الوطن والمجتمع لخوض مقاومة منظمة وشاملة لكل القطر الجزائري، ورأى في أيّ خروج عن هذا المبدإ تصدُّعا في كيان الدولة بل فاقدة للسيادة. وقد كان النسيج الاجتماعي الجزائري فسيفساء مشتَّتة جغرافيا ومتصارعة اجتماعيا وسياسيا، تتجاذبه جماعات الكراغلة وقبائل المخزن وصراع قبائلي وطرقي على مجال النفوذ. وتعد الطريقة التجانية إحدى أبرز أوجه هذا الصراع الداخلي الذي خاضه الأمير عبد القادر، إجتهد في صهرها تحت سيادة سياسية واحدة.

ومن أبرز الدراسات الجزائرية التي اهتمت بهذا الموضوع نذكر: بن يوسف تلمساني"الطريقة التجانية وموقفها من الحكم المركزي بالجزائر (الحكم العثماني-الأمير عبد القادر-الإدارة الاستعمارية) 1782-1900" في رسالة ماجستير غير منشورة، عن جامعة الجزائر، سنة 1998/1997، ومقال نور الدين بلعربي "الصراع بين الأمير عبد القادر وزاوية عين ماضي وموقف المغرب وفرنسا من ذلك" بمجلة القرطاس العدد الحادي عشر سنة 2019. ومن الدراسات الفرنسية نشير لمقال ت أرنو T Arnaud "حصار عين ماضي من طرف الحاج عبد القادر بن محي الدين" بالمجلة الإفريقية لسنة 1864 عدد60.

والإشكالية الرئيسية المطروحة كانت كالآتي: ما هي دوافع الأمير عبد القادر لحصار عين ماضي؟ وكيف انعكس الدور الفرنسي وبالخصوص ليون روش على مجريات ومخرجات هذا الحصار؟ محاولين معالجة الموضوع ضمن هذه المحاور:

مركزية عين ماضي لدى الطريقة التجانية
الضرورة الشرعية والسياسية لحصار عين ماضي
التطورات العسكرية لحصار عين ماضي
الدور الفرنسي في الصراع وعواقبه على المقاومة

1. دور عين ماضي ودواعي حصارها

أ-مركزية عين ماضي لدى الطريقة التجانية:

مدينة عين ماضي وتعرف بالمناطق الصحراوية البلدات المحصنة ب "القصر"،[1] تقع على مسافة 450 كلم جنوب الجزائر و53 كلم غرب الأغواط و24 كلم عن تاجمونت، تحوي حوالي مئتي مسكن، ورغم صغرها تشتهر بدفاعاتها القوية، إذ الأسوار تبلغ ثمانية أمتار طولا وبسُمْك مترين،[2] عين ماضي محاطة بحدائق لها سور أقل أهمية من الأول لكن

يوفر حماية مزدوجة للمدينة. محمد الصغير التجيني سيد المدينة سليل الأشراف، لا يقبل الندية ولا أن يكون تابعا، مرابط على طريقة أجداده، نأى بها عن التدخل في الشؤون السياسية للبلد.[3]

ويعتبر تصميم قصر عين ماضي عملا هندسيا مدروسا، لا من حيث الموقع والأسوار الخارجية المحيطة بالمدينة المدعَّمة بأبراج الحراسة، وشبكة طرقات وأزقة تضمن حركة انسيابية داخل القصر، ووفرة المياه للسقي والشرب، مما يجعل منها مدينة مستقلة قائمة بذاتها، تمكّنُها من الصمود أمام الأخطار الخارجية لفترات طويلة.[4] ولازال هذا القصر يعيش ذكرى الإنتصار التاريخي على محاولة حصاره سنة 1783 من طرف باي وهران محمد الكبير.[5]

ومن أعلامها الشيخ والعالم أحمد التجيني الذي استقل بطريقته وسميت باسمه سنة 1781، وجعل مقرها بعين ماضي، ورتب لها الأوراد والأذكار عرفت "بالكناش "وأصبح لها "مقدم" بكل ناحية وأتباع كثر عُرفوا باسم "الأحباب" وبدأت تتوسع وتنتشر بدون توقف، لدرجة أثارت ريبة الحكومة التركية، ويقوم باي وهران بحصارها وفرض عليها غرامة سنوية كبيرة سنوات 1783-1787، ليغادرها شيخها إلى فاس في حضوة السلطان مولاي سليمان إلى أن توفى بها سنة 1815.[6]

وقبل موت الشيخ أحمد التجيني عهد بطريقته إلى الحاج علي بن الحاج عيسى مقدم زاوية تماسين بواد ريغ بالجنوب الشرقي للجزائر لحداثة سن أولاده، في حين ظلت عين ماضي في عقب الشيخ المؤسس للطريقة، وهكذا أصبحت الطريقة التجانية بفرعين أساسيين يهَيْمِنان عليها، لكن في تعاون مثمر خصوصا في النائبات، إذ ساندت تماسين عين ماضي لمّا حاصرها الأتراك وفي حملة الإبن البكر لشيخ الطريقة محمد الكبير سنة 1827 بضواحي معسكر.[7]

تولى محمد الصغير إدارة شؤون عين ماضي بعد أخيه، تناصره وتآزره تماسين، فأصبحت قوة روحية واقتصادية بتحكُّمها في قوافل التجارية لطوارق، السودان، وافريقيا الوسطى، تجوب بلاد شنقيط، تمبوكتو والسنغال، يسيِّرها أتباع الطريقة بكل أمان بصفة مقدم عن زاوية عين ماضي، دَرَّت عليها ثروات عظيمة واكتسحت الطريقة كل العمق الإفريقي، وكانت سببا في نشر الإسلام في هذه الأقطار.[8]

ما يجب الإشارة إليه أنه ومنذ العهد التركي كانت الأغواط -إحدى الحواضر التاريخية المهمَّة بالصحراء القريبة جدا من عين ماضي-منقسمة إلى ثلاثة أحياء فرع أولاد سرغين، وفرع الأحلاف (أحمد بن سالم)، وفرع أولاد الحاج عيسى وهو الأضعف، تتنافس النفوذ على مدينة الأغواط ولو بالإستعانة بقوى خارجية، على بعضها البعض لتنتزع رياسة وسيادة المدينة، وفي سنة 1828 –قبل عشر سنوات من هذا الحصار- أصبح فرع الأحلاف الذي يرأسه أحمد بن سالم وهو موالي للتجانيين سيد مدينة الأغواط إلى مرحلة قيام الأمير عبد القادر ليكرِّس سلطته.[9] وبالتالي تعززت وتوسعت سلطة التجانيين بعين ماضي إذ أصبحت احدى الحواضر القريبة منها في كنفها تساندها وتآزرها، وستُلقي هذه التحالفات والنزاعات بين هذه الأفرع المتنافسة عل سيادة مدينة الأغواط بظلالها في رسم مستقبل المنطقة برُمَّتها أثناء حصار الأمير عبد القادر لعين ماضي وفي تعاملها مع الاحتلال بعد ذلك.

ب-الضرورة الشرعية والسياسية لحصار عين ماضي

كان لسقوط مدينة الجزائر سريعا في يد الفرنسيين في 4 جويلية 1830 وبعدها وهران في 4 جانفي عام 1831، إيذانا بدخول البلد عهد جديد، تردّى فيه الوضع سريعا عبَّر عنه الأغا المزاري صاحب طلوع سعد السعود "نار الفتنة ثاقبة بين المسلمين بواديها والحواضر، منذ دخل النصارى لمدينتي وهران والجزائر، قام لإطفائها العلماء والشرفاء والمرابطون سيما القطب الأكبر سيدي محي الدين بن مصطفى، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بجمعهم للجهاد".[10]

هذه الهبَّة الجهادية التي قادها مُحي الدين ومن بعده إبنه عبد القادر الذي أظهر حنكةً قيادية بعد مبايعته أميرا للمؤمنين في 23 نوفمبر 1832، وهو اللقب الذي له مدلول ديني أكثر منه كسلطة وحكم، ومهارةً سياسيةً تكمن في تكبُّد عناء قيادة هذه الجموع (عموم الشعب) التي تؤكد الشواهد وقتها أنه منقسم على نفسه، لم تكن لتغيب عن عبقرية الأمير النافذة في صَهر هذه المكوّنات ضمن وطنية عربية إسلامية أكثر منها وطنية سياسية، ويطمح لاستقلال عرب الجزائر تحت حكمه.[11] فالوحدة الوطنية آنئذ لم يكن بالإمكان فهمُها إلا في إطار الدين الإسلامي عقيدة وشريعة.[12]

فالضرورة السياسية أوجبت عليه وحدة وطنية عنوانها جهاد الغزاة، فلم يدعُ القبائلَ لنفسهِ وإنما إلى الجهاد، ويكون الملتقى في جانفي 1833 على أسوار وهران، معركته هذه وإن لم تطْرُدِ الفرنسيين فإنها جعلت منه حامل لواء الجهاد بعد أن أحكم حصارا شديدا عليها. وهي حركة سياسية لا يستطيع أي مناوئ له رفضَها وإلا عُدَّ متخاذلا وترفع أسهم الأمير لدى عموم الشعب وخطوة إلى الأمام عن كل منافسيه وتجلب لصفِّه كل تفرُّعات الفِرق الدينية التي لها نفوذ إلى حدود المغرب.[13]

إن سعيَه لتوحيد القبائل حول سلطته، لم يكن له فيها إلا رتبةَ خادم شعبه.[14] فالمبايعة (هي الثقة والوفاء والرضا التي وضعتها الجماهير في شخصية الحاكم) عزَّزت معنى الشرعية والمقاومة وأنجزت وحدة المجتمع وحدَّدت مصيره المشترك.[15] وما يمكن ملاحظته أن الأمير عبد القادر لم ينل منصب القيادة والزعامة بالوراثة أو التزكية أو الوصول إليه بالقوة، ولكنه تقلَّدها عن طريق الشورى بشكل ديمقراطي حسب التعبير المعاصر.[16]

فبحق هذه البيعة تعلل الأمير عبد القادر أمام والده حين حذَّره هذا الأخير من عدم التسرع مع القبائل النافرة، بقوله "الفرنسيون على أبوابنا، ينهبون، يغزون، ويقتلون، وماذا لدينا لمقاومتهم، قبائل يصارع بعضُها بعضا، ورؤساء متآمرون جشعون يتقاتلون لتوسيع مناطق نفوذهم، ومدنيون تمردوا على كل نظام، بعضهم راح يغتني بالنهب، لذا كان عزمه على أداء حق البيعة.[17] بالتالي مهما تكن الأسباب المختلفة لحملة عين ماضي، لكنها تدخل في إطار جهود الأمير عبد القادر لخلق وحدة جغرافية واسعة لمشروع دولته، واستنهاض كل الجهود الممكنة للمقاومة.[18]

وهذا ما ذهب إليه ليون روش Léon Roches[19] أن الأمير يريد أن يثبت سلطته الفعلية على القطر الجزائري بين تونس والمغرب، لكن على الصحراء الوسطى نازعه الولي سيدي محمد التجيني شيخ الطريقة التجانية والذي له أتباع وسلطة روحية على عدة قبائل في الجزائر كلها.[20]

والأمير عبد القادر شاهد عيان على النظم الحاملة للتفرقة والصراع لكل مكونات المجتمع الجزائري، بقايا الأتراك وطائفة كراغلة المتحالفة مع قبائل المخزن، الحضر (البرجوازية الأهلية) وتتصارع حتى فيما بينها وكذلك ضد قبائل الرعيَّة عمومَ العرب والبربر أو أهل الريف، وهذه الأخيرة تتنازعها عدة زعامات محلِّية باسم القبيلة أو مرابطي الطرق الصوفية المفتخرة بدينها ووطنها.[21]

ولم يكن ليسلم من هذا التشتُّت القبلي جهة أو منطقة وأحيانا كثيرة يمس المدينة الواحدة مثل الأغواط ويصدق الحال كذلك على تلمسان وقسنطينة وأغلب باقي المدن حينئذ. ونفس الحال كانت عليه القصور الصحراوية (تاجمونت، عين ماضي، حران) وصراعاتها المتشعِّبة تشابهت إلى حدٍّ بعيد مع تاريخ الجمهوريات الإيطالية في العصور الوسطى[22] وبالتالي فمراعاة التحالفات القائمة وإيجاد توازنات وتفاهمات سياسية تلقى حدًّا أدنى من القبول، هي ضرورةٌ سياسيةٌ ملحةٌ لتجنب كثير من الصدامات البينِية.

فالوحدة التي كان ينشدها الأمير عبد القادر، يعقِّب عليها ناصر الدين سعيدوني بقوله "لو أمكن توحيد مقاومة الأمير وأحمد باي واكتساب جماعة الكراغلة وفرسان المخزن لتغير سير التاريخ الجزائري الحديث ولأمكن بدون شك إيقاف الزحف الفرنسي وآثاره المدمِّرة لمدة قد تصل إلى نصف قرن".[23] لكن لما حلَّت ساعة المفاصلة لتوحيد جميع القوى في مواجهة الفرنسيين كان قد تشكل حاجزُ صدٍّ مركبٍ "سياسي، اجتماعي، اقتصادي وحتى نفسي" وقف عقبةً كئودًا أمام الأمير عبد القادر لتوحيد الجهود للتصدي للعدوان الخارجي.

رغم أن الأمير عبد القادر وأباه من قبله كان على رأس طريقة قادرية وسُمِّيَ تبركا بها عمل على كسب بقية الطرق، ففي كل محلَّة يكون لها ممثل يدعى المقدم وله مريدون، شغله تذكية روح الجهاد، وتقديم الدعم للمجهود الحربي، وكذا الدعاية والأمن تحت راية الأمير عبد القادر، وان كان بعضها ناصبه العداء أمثال الحاج العربي (أتباع الطريقة الطيبية).[24]

غير أن الطريقة التجانية بعين ماضي كان لها أكبر وقْع وأثرٌ بالغٌ بعد جماعة الحضر والكراغلة وقبائل المخزن على مقاومة الأمير عبد القادر والمقاومة الشعبية على العموم. لما تتمتع به من نفوذ كبير في أوساط شريحة كبيرة من الأنصار والمحبِّين والمريدين وكذلك بما تمثله من عمق استراتيجي داخل الصحراء من المغرب إلى تونس.[25]

الأمير عبد القادر عمل بكل الوسائل الممكنة، ليُدخل التجانية ضمن سلطته، وباءت كل محاولاته المتكررة معهم بالفشل، وسيدا تماسين وعين ماضي على التوالي الحاج علي ومحمد الصغير التجيني رفَضا رفْضا قاطعا أن يصبحا من أتباع الأمير، التجيني وإن حاول التقليل من حدَّة هذا الرفض بعبارات؛ أنه منقطع للعبادة ويعيش حياة دينية هادئة ولا يريد الخوض في صراعات دنيوية، وأن القدَر الذي مكَّن الفرنسيين من بلاد المسلمين قادر أن يجلبَهم عنها، دون الإحتياج لسواعد التجانيين.[26] وظلت البعثات والمراسلات بين الطرفين متوالية بدون نتيجة، والأمير عبد القادر يعطي الضمانات والتطمينات لشيخ التجيني، وهذا الأخير ثابت على موقفه، وهكذا تباعدت المواقف والرآى، فالأول بحق لواء الجهاد وسيادة الدولة يجب الإعتراف بشرعية سلطته، والثاني سليل طريقة شهيرة لها أتباع من مصر إلى المغرب يأبى الإنضواء تحتها.[27]

وبالمحصلة تشابه موقف التجانيين مع الكراغلة وقبائل المخزن إتجاه الأمير عبد القادر وإن كانت اختلفت دوافعهم وتوجهاتهم. فالتجانيون لازالت تجذبهم رواسب الماضي وبالضبط مع مطلع القرن التاسع عشر حيث تبنت الطريقة انتفاضة ضد الحكم العثماني سنة 1827، انتهت بمقتلة أبيدوا فيها عن آخرهم مع سيدهم أحمد بن أحمد التجيني (محمد الكبير) بنواحي غريس بمعسكر، لم يسلم حينها أهل الحشم (قبيلة الأمير عبد القادر) من اتهام حسن باي وهران بأن لهم يد في ذلك وإلا ما كان التجيني أن يجعل بلادهم طريقا.[28] في حين اعتبر أنصار التجيني أنه لولا تقهقر الحشم ومن وافقهم ما كانوا ليقعوا في عين الإعصار لتُجتث شأفتُهم من طرف الباي العثماني وأعوانه.[29]

الأمير عبد القادر وإن وُفِّق في المبرِّر الشرعي (الفتوى الدينية) في مقاتلة شيخ التجانيين وهذا ما جاء في مذكراته " تخلف صاحب عين ماضي عن البيعة اللازمة له بشرعنا، وعدم موافقته على الدخول في سلك الجماعة، ومنع كثيرا من الحقوق الواجبة عليه كالزكاة المقترنة شرعا بالصلاة، وهو المصوّغ الشرعي الذي قاتل به خليفة رسول الله أبوبكر الصديق المرتدين".[30]

وحتى يُبْعِدَ أي تأويلٍ بشأن تدخُّله في عين ماضي وحصارها أصدر الأمير بياناً يوضح فيه طريقة معالجته لأمر التجيني ومن انتمى إليه حيث قال: "إن أهملنا أمرهم خشينا أن يسريَ هذا الفساد إلى غيرهم فيفوت المقصود الذي هو

جمع الأمة على كلمة واحدة وطريقة موحَّدة فأخذنا في حصار حصنهم والتضييق عليهم".[31] وبالتالي هذه الفتوى الدينية إرتكزت على مبررات شرعية تجيز للأمير عبد القادر ما أقدم عليه من منظور فقهي شرعي. وكذلك الأمير يستمد شرعيته من المبايعة ومن الانتصارات التي حققها على العدو الفرنسي، فله "حق السيادة"[32] وقد استعمل هذا الحق ليبرر حملته على عين ماضي الذي نازعه فيه محمد الصغير التجيني، وسرد في الرسالة التي بعث بها إلى وكيله بفاس الحاج الطالب بن جلون حيثيات مبررات الحملة.[33]

غير أن هذه الفتوى يمكن مراجعتها ضمن السياق العام للمقاومة والعمل التراكمي الذي تتطلبه (ماديا وعسكريا بالخصوص) وعدم فتح جبهة جديدة في خاصرة المقاومة، على أساس قاعدة درء المفاسد أولى من جلب المصالح، وهي إحدى مقاصد الشريعة ضمن "فقه الأولويات" مُلخَّصُها "وضعُ كلُّ شيءٍ في مرتَبتِه فلا يؤخَّرُ ما حقُّه التقديمُ أو يُقدَّم ما حقُّه التأخير ولا يُصغَّر الأمرُ الكبيرُ ولا يُكبَّر الأمر الصغير".[34]

لذا وإن كانت المصلحة تستوجب توحيدَ الجهودِ ورصَّ الصفوفِ وهو حقٌ مشروعٌ، فإنه كان يمكن احتواء الطريقة بالطرق الأخوية أو حتى الدبلوماسية المتأنية، ولو على مرحلةٍ طويلةِ النَفس زمنيًا والصبرُ عليها والقبول منها بالقليل خيرٌ من لا شيء، كالاضطلاع بالمهام المجتمعية مثل التعليم.

وبالتالي تكون تثمينا للمبادرة الأولى للأمير عبد القادر، حين أجاز قبل ذلك لشيخ الطريقة الرحمانية بزاوية الهامل بمنطقة بوسعادة محمد بن أبي القاسم سنة 1837، أن يضطلع بواجب التربية والتعليم نحو أبناء قريته، فشجَّعَهُ وحَثَّهُ على توسيع دائرتها، مع أن هذا الأخير أفصح عن نية الجهاد في سبيل الله، لكنه في الأخير امتثل للأمر الصادر له من قبل الأمير عبد القادر.[35] وقد أبَانَ شيخ الطريقة التجيني في أفريل 1838 عن نوايا حسنة حين بعث بهدايا للأمير عبد القادر ليردَّه عن الحملة.[36]

2.السِجال العسكري وعواقب الدور الفرنسي

أ-التطورات العسكرية لحصار عين ماضي:

قبل المواجهة العسكرية، كان قرار الأمير عبد القادر بتعيين الحاج العربي بن الحاج عيسى الأغواطي زعيم الأغواط الشراقة خليفة له على تلك المناطق غير موفَّقٍ من المنظور السياسي والإستراتيجي العسكري، إذْ كانت له نويا كَيْدِيَّةٍ ضِدَّ غَرِيمِهِ أحمد بن سالم زعيم الأغواط الغرابة المدعمين من قبل زاوية عين ماضي.[37]

هذا التعيين الذي حضِي به الحاج عيسى سرعان ما حاول استثماره ضد غريمه بعين ماضي برفع تقارير مغرضة للأمير عبد القادر، كون التجيني يمثل رأس الحربة لدى القبائل المناوئة للأمير بالصحراء، في حين كانت سلطته السياسية لا تتجاوز حدود أسوار قصره.[38] وهكذا أصبح التجيني في نظر الأمير عبد القادر من خلال تقارير خليفته منازعا لسلطته على الصحراء.[39] وعليه فإن اختيار خليفة لتلك المنطقة يراعى فيه حدا أدنى من القبول ويتمتع بنفوذ قوي، ضرورة ملحة لإيجاد خيط وصل مع القبائل النافرة. والتحالفات القائمة، وتنأى عن الصراعات السابقة بما يخدم المصلحة العامة.

الواضح في الأمر، أن حجم القوات التي استنفرها هذا الخليفة تبرز نيته غير السليمة ورغبته الخفية، إذ لم تكن لتتجاوز 255 فارس كأقصى تقدير، وكأنه ألقى بثقل المواجهة ورمى بها على كاهل الأمير عبد القادر وحده، هذا الأخير استقدم معه 2000 عسكري، ليرتفع العدد إلى 3585، ثم ليصل بعد ذلك إلى 8000 رجل.[40] وحسب تشرشل لم يفد الحاج عيسى بأي شيء، لم يوفِّر الإمداد اللآزم للجيش المحَاصِر واضطر الأمير لجلبه من الخطوط الخلفية البعيدة، وحتى قوافل الإمداد كانت معرضة لهجمات المغيرين، وتبيَّن أنه لم يكن أكثر من محتال.[41] حيث قامت قبائل الأربعاء

المخلصة للتجيني بقطع الطرق والسطو على قوافل الدعم والذخيرة القادمة إلى الأمير عبد القادر من الشمال، لضرب معنويات الجيش المحاصِر لعين ماضي، وتبدأ حينها تُطرح فكرة التراجع عن هذا الحصار.[42]

إن المواجهة التي أريد لها أن تكون تأديبية فقط وإعلانا لسيادته على مناطق الجنوب، جوبهت من أول وهلة بمقاومة عنيفة من طرف التجانيين، وبدأت تظهر عورات الحملة من أول يوم بعد عدم تمكن قوات الأمير بإحداث أي خرق لأسوار المدينة الحصينة وتكبد خسائر في الأرواح، واستمرت مناوشات كثيرة شهري جويلية وأوت 1838 لكنها معدومة الفائدة من الناحية العسكرية، فعبد القادر يفتقر إلى الذخيرة وينتظر إمدادات من فرنسا ومراكش لتشديد الحصار.[43]

آثر التجيني التخندق وراء مناعة أسواره وإخلاص وولاء أتباعه، فأصبحت سيادة الأمير عبد القادر على المحك وأمام امتحان صعب، إن تراجع تذهب هيبة سلطته على كل الصحراء ويتردد صداها في التلِّ وتفقد الدولة سيادتها، لذا أقسم الأمير عبد القادر أن يموت دونه ولا يتولى عنه رغم تبيُّن ضريبته المكلفة.[44] الأمير عبد القادر عازم على خضوع عين ماض وبأي ثمن، لكن الوضعية الحرجة بعد استبسال أتباع التجيني، جعلته يطلب من خليفتيه على معسكر وتلمسان بكل المدافع التي بحوزتهما.[45]

رفع الأمير عبد القادر سقف مطالبه، بشرط حضور التجيني إلى خيمته، ووضع بين يديه كل الأسلحة والذخائر، وفتح أبواب المدينة له، وإنك لتزداد عجبا من هذا السِجال في إصرار الأول وعناد الثاني.[46]

تفاقُم الوضع مع طول مدة الحصار من 12 جوان 1838 إلى غاية 12 جانفي 1839، وإستنزاف موارد الأمير العسكرية التي هو في أمس الحاجة لها، كان معاكسا لما توخَّاه من فترة السلم التي أعقبت معاهدة تافنة، عوض أن تُسْتَثْمر جيّدًا أنهكته وأنهكت جيشه في صراعات جانبية، فضلا على أنها حيَّدَتْ بل اسْتَعْدَى جِهةً كاملةً من الوطنِ لها باعٌ اقتصاديٌ وعسكريٌ هامٌ، وتركت جروحاً وشروخاً تنزف، شكَّلت حاجزاً نفسياً لاستيعابها بعد ذلك ضمن المقاومة.

وهذا ما ذهب إليه أبو القاسم سعد الله "إنشغل الأمير عبد القادر بحصار عين ماضي الذي أخذ منه وقتا وجهدا كبيرين كان في أشد الحاجة إليهما لتأسيس أركان الدولة".[47] والحاصل أن طبيعة المقاومة الفاعلة يجب أن تكون (شعبية منظمة، مصحوبة بتعبئة سياسية محكمة وتوحيد بين القوى والجهود، مع تدبير عسكري وتوفير للأسلحة والعتاد).[48] ففضاء الجنوب الشاسع يوفر مناطق آمنة يلجأ إليها جيش الأمير حيث يتعذر على الفرنسيين ملاحقته فيها، وكان الأمير مقتنعا بأن الصحراء ستكون عائقا كبيرا في طريق تقدم الفرنسيين لسنوات طويلة.[49]

كانت استراتيجية الأمير عبد القادر خلق خطوط دفاعية موازية للساحل أي في مجابهة المراكز الفرنسية، خط يتوسط التل أهم مدنه تلمسان، معسكر، مليانة ومدية. وخط القلاع والحصون لحافة التل على مشارف الصحراء سبدو، سعيدة، تاقدمت، تازا وبوغار، بالإضافة إلى خط أخير في عمق الصحراء وهو الداعي لحملة عين ماضي ويشمل كذلك مناطق الأغواط، وبوسعادة والزيبان أي مقاطعة الصحراء.[50] لكن ما يمكن ملاحظته أن المقاطعات الثلاث (مجانة، الزيبان والصحراء) على العموم قواتها جد ضعيفة وسلطتها شكلية، ولم تشارك بصفة فعلية في جهاد الأمير عبد القادر.[51]

فالرمزية التي صنعها الأمير بقيادة الجهاد ضدَّ أعدائه المسيحيين، تجعل هذه الهالة الرائعة التي توَّجَتْ جبينَهُ تفقد بريقها بحربه ضدَّ اخوانه المسلمين –شيخ عين ماضي-، وكذلك تُضْعِفُ مواردَهُ الماديةَ وتفنيهَا في صراعاتٍ داخليةٍ تُفتِّتُ العرب، وتؤدِّي بالضرورةِ إلى الإستنزاف التدريجي لقوات الأمير وتخدم الاحتلال بشكل منقطع النظير، لذا عدّ كل

من وارني ودوماس Warnier et Daumas [52] أن حصار عين ماضي سيكون له آثارٌ معاكسة لما يتوخاه الأمير.[53] وعبَّر برونو إتيين Bruno Étienne عن سير الأمير إلى التجيني سنة 1838 "أن الأمير يتقدم نحْوَ أوّلِ خطإٍ فادحٍ له".[54] ويعلق بلمار Bellemare على حصار عين ماضي "لعب دورا محوريا في تاريخ الأمير عبد القادر، وكاد أن يُورِده المهالك".[55]

وبالمحصلة فإن الحروب السابقة للأمير عبد القادر في حصار المدنِ لم تكن نتائجُها مرضيَّةً، والتي ترتكزُ بالدرجة الأولى على القوة النارية للمدفعية وكثافتها، رأينا ذلك في حصار مستغانم (بقيادة كولوغلي باي ابراهيم) أوت 1833 وكذلك في حصار تلمسان (الكراغلة المتحصنين بقلعة المشور ثم انزاح إليهم مصطفى بن اسماعيل شيخ الدوائر) سنة 1834.[56] وهي المدن الأقرب وضمن المجال المتاح لقواعِدِه العسكرية.

فتحصينات عين ماضي ظلت حائلا أمام جيش الأمير، رغم الجهود الكبيرة المبذولة، وأصبح الحصار بلا فائدة.[57] ظلت الأسابيع والشهور تتوالى والأمير عبد القادر يفقد يوميا كثيرا من الرجال، ويضطر إلى استقدام مشاة تلمسان، ورفع عدد المدفعية، وتجهيز السلالم تحضيرا لهجوم جديد، لكن المسألة لا يبدو أن لها حلا في الأفق القريب.[58] ويأمر بالهجوم للمرة العاشرة على هذه الأسوار، التي مازالت تحمل بصمة عدم قدرة جيش الأمير عبد القادر على تجاوزها،[59] وكانت معسكر تستقبل كثيرا من جرحى حصار عين ماضي.[60]

واستمر الوضع على حاله إلى أن وصل شقيقه سيدي محمد سعيد والخليفة مصطفى بن التهامي بتاريخ 17 نوفمبر 1838 إلى مكان تمركز الأمير عبد القادر حول عين ماضي، للتوسط بين المتحاربين لحل الخلاف وانهاء الصراع، وهو ما تمَّ بعد مفاوضات عديدة، حيث ينجلي التجيني عن عين ماضي خلال 49 يوما مع عائلته وثروته وأتباعه، وفي 12 جانفي 1839 يقوم الأمير عبد القادر بنسف قصرها وحصنها ودك أسوارها وأبراجها.[61]

هذه الوساطة التي امتلك بها الأمير عبد القادر قصر عين ماضي، أعتبرت عند بعض الفرنسيون "خيانة"،[62] كون الأمير تعب من هذا الحصار الغير مجدي، فنَدَب صهره مصطفى بن تهامي بإعلام التجيني أن الأمير لا يريد إلا الصلاة في مسجد عين ماضي، وحينما دخلها قام بنسف المدينة.[63] يكررها لادمير Ladimir نصا وحرفا دون توصيفها،[64] ويعلق عليها ترومليه Trumelet خدعة كبيرة لم تكن لتنطلي على التجيني، وكان مقربون من الأمير عبد القادر قد حذروا التجيني أن طلبه هذا ينطوي على "خيانة".[65] وبعضهم يعنْونِ لملاحظات حول حصار عين ماضي أن المدينة سلمت عن طريق "الخيانة".[66]

هذا الفعل الشنيع بعيد عن خلق الأمير عبد القادر (دينيا وسياسيا)، لقد كانت للأمير إرادة واحدة مع كل القبائل النافرة هي الإعتراف بحق البيعة ودفع الزكاة الواجبة. وعلى هذا الأساس حارب قبل حصار عين ماضي بعض قبائل الصحراء من الزناخرة ومن والاهم جنوب بوغار، وعلى رأسهم بن عودة المختاري، وحين انتصر عليهم الأمير عبد القادر، طلب بن عودة الأمان، فكانت حركة الأمير السياسية ذكية، ليس العفو عنه فقط بل جعله أغا على قومه.[67] وهي اشارة واضحة لبقية القبائل والأعراش أن الأمير عبد القادر ليست له عداوة شخصية مع أحد، سوى الحقوق الواجبة اتجاه الدولة.

ب-الدور الفرنسي في الصراع وعواقبه:

لم تكن الأيادي الفرنسية الممتدة في هذه المواجهة بالأمر الهيّن في تعميق هوَّة الخلاف بين الطرفين والذهاب بها إلى حد الإقتتال، فلو نجح الأمير في اقناع التجيني الذي لديه قوة معنوية كبيرة بالوقوف إلى صفِّهِ، وقوة اقتصادية تتحكم في الطرق التجارية لجنوب الصحراء، لخلَق مشاكلَ جدِّية للاحتلال.[68] ويمكن تتبع دور ليون روش في تأجيج نار الصراع بين الطرفين حين عمد إلى جعل المواجهة حتمية على الأمير عبد القادر بعد أن قاد المفاوضات الأولية مع الشيخ التجيني.[69]

ليون روش Léon Roches أو عمر ولد الروش كما يلقب لدى العرب، أصبح المستشار الأمين والصديق الحميم للأمير عبد القادر، وبعد أن حامت حوله شبهات من خليفة تلمسان، يفر منها ويذهب في أثر الأمير بعين ماضي، ويختلق الأعذار لفراره ويقلب الوضعية لصالحه، ويحضى بالشخصية الأكثر تأثيرا في محيط الأمير عبد القادر، ويقوم بالأدوار الأولى في هذا الحصار.[70]

وفي مذكراته يقول ليون روش هو من أقنع الأمير عبد القادر وتطوع ليقود المفاوضات الأولى مع التجيني بحكم أنه فرنسي، لا يمكن للتجيني أن يمسَّه بسوء، وإذا لم يقدر على إقناع صاحب عين ماضي، فهي فرصة يقتنصها للإطلاع على تحصينات المدينة ودفاعاتها.[71] وهكذا استطاع ليون روش أن يحبك خطته، ويرفع أسهُمه لدى الأمير عبد القادر (حصل على وسام بعد انتهاء الحصار)، كتابع مخلص ومخاطر بحياته من أجل سيده.[72] ومهما يثار ويقال عن سلوك ليون روش من ازدواجية الشخصية، لكن نجحاته التي حققها للفرنسيين تبرر تصرفاته.[73]

ليون روش Léon Roches وبعد استطلاع مدينة عين ماضي تيقَّنَ أن الأمير أخطأ في تقدير الوضع، وذلك من أمرين مهمين؛ الأول حصانة المدينة (الدفاع المزدوج لأسوار الحدائق وأسوار المدينة نفسها يجعلها كالمتاهة)، الثاني تصميم السكان وعزمهم للدفاع عن مدينتهم مهما كلَّف الأمر وتدين بولاء تام للتجيني (وهي عكس نصائح خليفته الحاج العربي بن الحاج عيسى الأغواطي أن حضور الأمير شخصيا كاف لتفتح له أبواب عين ماضي وتجلب طاعة جميع القبائل النافرة).[74]

لذا نجد ليون روش ينفخ في أذن التجيني عن حصانة مدينته وبإمكانها الصمود عشر سنوات، وكأنه يزين له فعل ذلك في وجه الأمير عبد القادر، في حين كانت مهمته بالأساس الحرص على نزول التجيني على عهد الأمير عبد القادر.[75]

ويمكن التساؤل عن مصدر الرسالة التي ألقيت من فوق اسوار المدينة تزرع بذور الشقاق وتحذر التجيني وجماعته بعدم الأمان بعهود الأمير عبد القادر حين آلت الأمور إلى الانفراج فزادتها تعقيدا.[76]

على مستوى السلطات الاستعمارية، عمل الحاكم العام فالي Valée[77] في هذه الفترة بالذات على أمرين مهمين: إفراغ مهمة ميلود بن عراش مبعوث الأمير إلى فرنسا لدى ملكها وحكومتها من محتواها، وجعْلِها مآدب ولقاءات بروتوكولية لا طائل منها، خلاصتها شؤون إفريقية يجب أن تسوى في إفريقية كما جاء على لسان رئيس الوزراء الفرنسي.[78] الأمر الثاني فرض مشروع إتفاقية توضيحية لمعاهدة تافنة، حين رجع بن عراش من فرنسا ختم عليها جبرا، تمتلك فرنسا بموجبها جميع شواطئ الجزائر، وصلة أرضية بين الجزائر وقسنطينة، وهي شروط كالربت بمخلب الأسد كما سماها تشرشل تجعل سيادة فرنسا على الجزائر قائمة وسيادة الأمير في مهب الريح.[79]

ولا يستبعد أبو القاسم سعد الله الدور الفرنسي في إطالة الحصار وتعقيد الخلاف بين الأمير وشيخ التجانية فيورد أن المارشال فالي Valée بذل قصارى جهده لرشوة خلفاء الأمير بالمدية ومليانة، والتأثير على ابن عراش الذي كان في منصب وزير الخارجية للأمير ليغيّر من بنود معاهدة تافنة، ولم يغفل أبو القاسم سعد الله كذلك دور بير بروجير

Berbrugger[80] صاحب الرحلة إلى المراكز العسكرية للأمير من أجل تقويض السلم مع الأمير والقضاء على دولته قبل استفحال أمرها.[81]

وعلى هذا الأساس لم يتوان الحاكم العام فالي Valée برفع اليد عن توريدات السلاح للأمير عبد القادر تمثلت في 500 بندقية وألف كيلو بارود و800 كيلو رصاص،[82] التي وصلت الأمير في الوقت المحدد أثناء الحصار، لنسف أيّ صلحٍ ممكنٍ بين الطرفين وإحداث قطيعةٍ نهائيةٍ تصبُّ بالضرورة لصالح الفرنسيين. ولم يتوان الأغا المازري في توصيف قاس لهذا السجال "أن النصارى إذا سمعوا بمقاتلتكما يضحكون عليه وعليك" (يقصد الأمير والتجيني).[83] فتشتيت الفرق الإسلامية وإذكاء النزاع والصراع بينهم يخدم الاحتلال مثلما حدث بين الحاج العربي والأمير عبد القادر، كونهما ينتميان إلى طريقتين مختلفتين (مولاي الطيب ومولاي عبد القادر).[84]

فيما يخص الذخيرة الفرنسية (قذائف المدافع والمتفجرات) يقول عنها دوماس Daumas قنصل فرنسا لدى الأمير بمعسكر، لم يكن لها أي مفعول حربي، بالمقابل ازداد تعنت التجيني وأرسل تحذيرا مع شيوخ المرابطين الذين سعوا في الصلح بينهما، بإمكان الأمير عبد القادر البقاء لعشرين سنة أمام أسواره، ولن يدخلها أبدا، معوّلا على حجم الأقوات والذخيرة المخزنة لديه بقصر عين ماضي.[85] يكفي أن نشير هنا إلى احدى المواجهات الحاسمة تعززت فيها مدفعية الأمير عبد القادر بخمس قطع مدفعية لتاقدمت وتلمسان، وظلت تدك أسوار المدينة بدون انقطاع، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، لينجليَ غبار المعركة وأسوار القصر لازالت قائمة أمام ذهول الجميع.[86]

والراجح هي مواجهة 4 جويلية 1838 التي تزعمها سكرتير الأمير عبد القادر ومهندس الحصار ليون روش Léon Roches بمساعدة الهنغاري، بَذّر فيها ثمانمائة (800) قذيفة مدفعية عن آخرها، وهي كل ذخيرة الجيش دون جدوى ودون أن تمس أساسات الجدران.[87] ليبقى الحصار معلقا ويطيل من عمر الأزمة إلى أقصى حد.

بالمقابل حين أريد تلغيم قصر التجيني، يجتهد ليون روش بإحضار بوصلة، وجهاز تيوديليت (لأخذ قياسات طبوغرافية) وفتيل مفرقعات من عند الحاكم العام فالي Valée، ولم يكشف سر هذه العملية حتى لقادة جيش الأمير عبد القادر، واحتفظ روش لنفسه بسر مفتاح اللغم ومكان النفق الملغم، وفي الثاني عشر من يناير1839 جرى التفجير بعد حسابات دقيقة، ليتحول قصر التجيني إلى كتلة من الأنقاض.[88] وكأن المتفجرات أريد لها متى وأين تأتي مفعولها.

توقيت مواجهة الأمير عبد القادر والتجيني أتت في فترة السلم الثانية (معاهدة تافنة)، التي عمد فيها الفرنسيون ورغم الإمكانات الهائلة إلى اجتناب فتح مواجهة مزدوجة مع أحمد باي في الشرق والأمير عبد القادر في الغرب.[89] ويمكن اعتبار شروط فالي المعدِّلة لإتفاقية تافنة إنذارا بقرب نقضها. وكانت فترة السلم الأولى (معاهدة دميشال) قد تم نقضها بعد سنة فقط(1834-1835) من طرف الجنرال ترزل Trézel، مما أنبأ أن الفرنسيين لم يكن في استطاعتهم الاستمرار في سلم معقود مع الجزائريين لفترة طويلة الأمد.[90]

وعليه يمكن اعتبار السلم المعقود مع الفرنسيين في نظر الأمير عبد القادر كحلٍ إستراتيجي لما يتطلبه مشروع الدولة الوطنية من جهد ووقت، في حين اعتبره الفرنسيون حلا تكتيكيا تقتنص منه فرنسا فُرصا لصالحها ثم ترتدُّ عنه.

وكانت تقارير كبار الضباط الفرنسيين تتوالى في فترة السلم التي أعقبت معاهدة تافنة، تُجمع على التعجيل بالنقض الفوري للسلم مع الأمير عبد القادر قبل انقضاء سنة 1839، وإلا سيكون سلطانا لكل الجزائر، ومن ورائه كل سكانها، لتجد فرنسا نفسها بعد أن قضت على الحكم التركي أمام وطنية عربية.[91] ويعلق بلمار Bellemare على حيثيات معاهدة تافنة "سيكون من المستحيل البقاء على وفاق لمدة طويلة".[92]

وعليه كانت كل المؤشرات تعزز فرضية عدم فتح مواجهة داخلية كبيرة وعلى نطاق جغرافي واسع ولها ارتدادات خطيرة على الكل الوطني، لا التوقيت ولا الإمكانات في صالح المقاومة مع عدوٍ متربّص.

عواقب هذه الحملة استدركها الأمير عبد القادر مباشرة بعد انتهائها بشهر واحد فقط. وهو ما وثقته الرسالة التي عثر عليها الأستاذ بن يوسف تلمساني بزاوية عين ماضي والمؤرخة يوم 23 ذي القعدة 1254 هجرية الموافق 7 فيفري 1839 مع هدية (سيف وعلمين) لا يزالان إلى اليوم في زاوية عين ماضي، حاول الأمير في هذه الرسالة ترميم العلاقة والاعتذار لشيخ الطريقة محمد الصغير التجيني يقول فيها "...أدركت حقيقَتَكُم وعلمتُ أنَّ ما دارَ بيننا هو وشايةٌ فقط وتدخُّلُ الفتَّانِينَ بيننا ولهذا أرجو عفوكم عنا...".[93]

إلا أنها لم تلْقَ صدًى كبيرًا، والدليل على ذلك أن التجانية سرعان ما دخلت في صراع مع خليفة الأمير من أجل استرجاع عين ماضي ومناطقَ نفوذٍ أخرَى، أما أحمد بن سالم الذي كانت سيادته مطلقة على الأغواط منذ 1828 والموالي للتجانيين، ظل له أتباع مخلصون بالأغواط استطاع بهم استرجاع سلطته، والقضاء على كل فِرَق خليفة الأمير عبد القادر، واستغل انشغال هذا الأخير في محاربة الاحتلال، وطلب الدخول تحت مظلة الفرنسيين، وهكذا تمكنت فرنسا من فتح طريق الصحراء دون إطلاق رصاصة واحدة، بعد انهيارٍ كاملٍ لسلطة الأمير عبد القادر عليها.[94] فلم يتردد التجيني سنة 1840 بعرض خدماته الفورية والدعم المعنوي والمادي على المارشال فالي ضد الأمير عبد القادر، وسنة 1844 وبإيعاز مباشر منه لمقدم التجانية أحمد بن سالم ليعين خليفة على الأغواط باسم الفرنسيين.[95]

لقد كان في فعل الأمير عبد القادر بنسف قبتهم أمرا لا يستوعبُه ولا يطِيقُه أبسطُ مريدٍ للطريقةِ فما بالُكَ بمشايِخِهم، لذا لم يتردْ هؤلاء في عرض تحالُفهم على الفرنسيين والانتقامِ منه، وفَتحتْ جبهةَ صراعٍ في خاصرة المقاومة بين الأشقاءِ الأعداءِ في حين كانت الحربُ الضروسُ والمحرقةُ التي سلَّطَها الاحتلال تستوجبُ توحيدَ وتوجيهَ السلاحِ وكلَّ الجهودِ نحو العدو.

خاتمة:

يخلص البحث إلى جملة من النتائج

أن المصوغ السياسي والشرعي لحملة عين ماضي ثابت للأمير عبد القادر بحق السيادة والبيعة الملزمة للجميع، لكن ظروف وسياقات وتوقيت وكذلك الامكانات المسخرة لهذه الحملة، تنبأ عن مؤشرات معاكسة بعدم فتح مواجهة داخلية وعلى نطاق جغرافي واسع، نظرا لإعاقة خطوط الإمداد، وعدم كفاءة الجيش في حروب الحصار، فضلا أنه عمق الشرخ بين الفرق الإسلامية التي كان يعول عليها حينها للتصدي للزحف الفرنسي.

تبادل الأدوار الوظيفية سواء جهادية أو تعلمية ومجتمعية بين مختلف الطرق الإسلامية مما يجعلها خادمة للمشروع الوطني التحرري، وتنأى عن تصادم يعيق ويعمق هوة الخلاف، وتؤدِّي إلى استنزاف تدريجي لقوات الأمير عبد القادر يجني ثماره الاحتلال.

طول مدة المواجهة لما يقارب ستة أشهر والحضور الشخصي للأمير للوقوف بنفسه على هذا الحصار، جعل كل مؤسسات دولته تقف مشلولة من أجل ربح هذا الرهان، وقد رأينا كيف أن مقاطعات مهمة ومركزية في دولته مثل معسكر وتلمسان تستنفر كل قواتها العسكرية والحربية لهذه الحملة رغم نتائجها الهزيلة.

لم تكن هذه المواجهة العسكرية الداخلية في هذه الفترة بالذات وبهذه الحِدّية، أن تكسب مقاومة الأمير عبد القادر مكسبا عسكريا حقيقيا أو دعما اقتصاديا للمقاومة، رغم ما تمثله الصحراء من بعد استراتيجي للمقاومة وحاضنة لها في حال القضاء عليها بالشمال، سواء للأمير عبد القادر أو لمقاومين آخرين. وفوق هذه الاعتبارات انتقاء خليفة يلبي حاجات المنطقة بما يخدم المصلحة العامة.

المواجهة العسكرية مع الطرق الصوفية ليس بالأمر الهَيّن، بل إن كسب المواجهة العسكرية معهم هو بحد ذاته خسارة من المنظور السياسي، فالطريقة لها أتباع ومريدون لهم إخلاص وولاء تام ويكِنُّون لها حبا، والحق عندهم ما يراه شيخ الطريقة لا غير، والشواهد كثيرة، إذ ما كانت تتربع الطريقة التجانية على عرش تجارة الصحراء لولا هؤلاء الأتباع الأوفياء، ورأينا كيف استبسلوا وأفنَوْا دفاعا عن شيخهم في الواقعة الشهيرة مع باي وهران، وفي مواجهة الأمير عبد القادر ورغم طول مدة الحصار لم يسجل المؤرخون أن انتفض أتباع التجيني ضد شيخهم تبرُّما من هذا الحصار رغم مصابهم فيه.

الأدوار الفرنسية الرسمية والفردية خصوصا ليون روش في الدفع بحتمية المواجهة بين الأمير عبد القادر والتجيني أثناء المفاوضات الأولى وبعد ذلك في تبديد ذخيرة المدافع، وإطالة أمد الأزمة مما رفع تكلفة الحصار من الذخائر والأقوات وكذلك من الرجال، ونسف أي تقارب أو تفاهم يخدم وحدة المقاومة. فالطريقة التجانية بما تمثله من قوة روحية على أراضي الصحراء واقتصادية وحتى عسكرية، كان بإمكانها أن تقدم إضافة معتبرة لعنفوان المقاومة لسنوات طويلة. لذا عمدت فرنسا لافتعال الخصام والدسائس لقطع الطريق على الأمير عبد القادر مع هذا المجال الحيوي للمقاومة، وأعطت للفرنسيين أريَحِية في التعامل مع ثورات الجزائريين كل على حدَة.

الهوامش (الإحالات):

[1] Alex Bellemare, Abd-el-kader sa vie politique et militaire, librairie hachette et cie, Paris, 1863, p18.
[2] Victor Bérard, Indicateur Général de L'Algérie, Bastide Libraire-éditeur, Alger, 1867, p304.
[3] Christian P, L'Afrique Française, Barbier A éditeur, Paris, 1851, p98.
[4] روان فتيحة، حنفي عائشة، خبيزي محمد، "الوظيفية في عمارة القصور الصحراوية قصر عين ماضي بالأغواط نموذجا"، مجلة الدراسات الإسلامية، (الصفحات 123-136)، الجزائر، 2017، ص ص 125-129.
[5] Alex Bellemare, Op.Cit, p214.
[6] Octave Depont & Xavier Coppolani, Les confréries religieuses musulmanes, Typographie et lithographie Adolphe Jourdan, Alger, 1897, pp416-418.
[7] Ibid, pp421-422.
[8] Louis Rinn, Marabouts et Khouan étude sur l'islam en Algérie, Adolphe Jourdan Libraire-éditeur, Alger, 1884, pp424-425.
[9] Corneille Trumelet, Histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger en 1864, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1879, pp64-65.
[10] ابن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص95.
[11] Marcel Emerit, L'Algérie à l'époque d'Abd-el-kader, Larose, Paris, 1951, pp15,17,184,233.
[12] عمار يزلي، "الظروف السوسيو-تاريخية لمقاومة الأمير عبد القادر: الخلفيات والمرجعيات"، تأليف جماعي، تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر، (الصفحات 35-58)، الجزائر، دار القدس العربي، 2000، ص39.
[13] Alex Bellemare, Op.Cit, pp43-45.

[14] Rosa Aougbi, Un personnage charismatique au destin de l'Algérie, Fondation Emir Abdelkader, L'Emir le devoir de mémoire et les défis de l'heure, (pp. 65-77), Thala Edition, Alger, 2006, pp69,71.

[15] محمد قنانش، "البعد التحرّري لدى فكر الأمير عبد القادر: الجمع بين الارادة الشرعية والقيادة الثورية"، الحوار المتوسطي، المجلد5، الصفحات 50-63، الجزائر، 2014، ص ص 51-52.

[16] فوزي أوصديق، النظام الدستوري الجزائري دولة الأمير عبد القادر دراسة تحليلية مقارنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2003، ص58.

[17] برونو اتيين، عبد القادر الجزائري، تر ميشيل خوري، Anep، الجزائر، 2001، ص ص 136،152.

[18] Henri Teissier, L'Emir Abdekader, Centre culturel du livre, Casablanca, 2020, p41.

[19] ليون روش Léon Roches: ولد بغرونوبل Grenoble مقاطعة دوفيني Dauphiné شرق فرنسا بدأ مشواره المهني كمترجم عسكري بالجيش الفرنسي بالجزائر ثم كدبلوماسي بالمغرب وتونس واليابان، وهو من الشخصيات النادرة والمحورية التي التصقت التصاقا وثيقا بالأمير عبد القادر في فترة السلم لمعاهدة التافنة، حيث أصبح السكرتير الشخصي للأمير وأحد المقربين منه (دور جاسوس) ويلعب أدوارا شديدة الحساسية والخطورة مست مقاومة الأمير عبد القادر خصوصا في حصار عين ماضي. ينظر:

-Marcel Emerit, La légende de Léon Roches, in-Revue Africaine, Volume 91, A. Jordan Libraire-éditeur, Alger, 1947, p-p 81-105

-يوسف مناصرية، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832-1847، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

-Charles-L Féraud, Les Interprètes de l'Armée D'Afrique, A Jourdan Libraire-éditeur, Alger, 1876, p-p 235-245.

[20] Léon Roches, Dix ans à travers l'islam 1834-1844, Librairie académique didier, Paris, 1884, p115.

[21] Marcel Emerit, Op.Cit, pp7,241.

[22] Corneille Trumelet, Op.Cit, pp70,83.

[23] ناصر الدين سعيدوني، "العلاقات بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي وانعكاسها على المقاومة الجزائرية في أوائل عهد الاحتلال"، مجلة الدراسات التاريخية، العدد الثاني، (الصفحات 57-77)، جامعة الجزائر، الجزائر، 1986، ص 59.

[24] Carlos Bouville, France et Algérie, Chenu imprimeur-éditeur, Loiret, 1850, p24.

[25] Marcel Emerit, Op.Cit, p241.

[26] Louis Rinn, Op.Cit, pp 425-426.

[27] Corneille Trumelet, Op.Cit, pp 106-107.

[28] عبد القادر بن محي الدين الجزائري (الأمير)، مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق محمد الصغير بناني، محفوظ سماتي، محمد الصالح ألجون، دار الأمة، الجزائر،2007، ص 126.

[29] Walsin Esterhazy, Domination Turque dans l'ancienne régence d'Alger, Librairie Charles Gosselin, Paris, 1840, pp218-224.

[30] عبد القادر بن محي الدين الجزائري (الأمير)، نفس المصدر، ص ص 112-114.

[31] إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1982، ص ص 174-175.

[32] شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر أبو القاسم سعد الله، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2004، ص176.

[33] Georges Yver, Abd-el-Kader et le Maroc en 1838, Revue Africaine, Volume 60, pp. 93-111, A. Jordan Libraire-éditeur, Alger, 1919, pp93-95.

[34] محمد أمين سهيلي، قاعدة درء المفاسد أولى من جلب المصالح (دراسة تحليلية)، رسالة لنيل شهادة الماجستير علوم إسلامية، غير منشورة، الجامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية -أدرار، الجزائر، 2006/2005، ص 22.

[35] المأمون القاسمي، "الطريقة الرحمانية"، ملتقى الحياة الروحية للأمير عبد القادر،الجزائر 29 جوان-01 جويلية 1998، (الصفحات 59-76)، موفم للنشر، الجزائر،2011، ص ص 63-64.

[36] Corneille Trumelet, Op.Cit, p 105.

[37] Georges Yver, Abd-el-Kader et le Maroc en 1838, Op.Cit, p 108.

[38] Alex Bellemare, Op.Cit, pp212-213.

[39] Jules-Jean-Gaétan Pichon, Abd El Kader, Henri Charles-Lavauzelle, Paris, 1899, p 81.

[40] Arnaud T, Siège d'Ain Madhi par El Hadj Abd-el-kader Ben mohiedin, Revue Africaine, Volume 8, pp 354-371 et 435-453, A. Jordan Libraire-éditeur, Alger, 1864, p 368.

[41] شارل هنري تشرشل، نفس المصدر، ص174.

[42] Alex Bellemare, Op.Cit, p215.

[43] أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847، ج 2، ط 3، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2005، ص ص 29-30.

[44] شارل هنري تشرشل، نفس المصدر، ص174.

[45] Georges Yver, Les correspondances du capitaine Daumas consul de France à Mascara 1837-1839, Editions el Maarifa, Alger, 2008, pp 260-262,354.

[46] Corneille Trumelet, Op.Cit, p 110.

[47] مقدمة المترجم، أدريان بيربروجير، مع الأمير عبد القادر رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة (1837-1838)، تر أبو القاسم سعد الله، الطباعة العصرية، الجزائر، 2006، ص10.

[48] محمد الصغير بناني، "معالم شخصية الأمير عبد القادر من خلال شعره (معالم فكره السياسي)"، مجلة الثقافة، العدد 96، وزارة الثقافة بالجزائر، الجزائر، 1986، ص 143.

[49] محفوظ قداش، "جيش الأمير عبد القادر تنظيمه وأهميته"، مجلة الثقافة، عدد 75، (الصفحات 51-74)، وزارة الثقافة، الجزائر، 1983، ص61.

[50] Warnier A, L'Algérie devant L'Empereur, Challamel Ainé Libraire-éditeur, Paris, 1865, p 305.

[51] Marcel Emerit, Op.Cit, p247.

[52] Auguste Warnier: زاول دراسة الطب وأصبح جراحا دون شهادة، سنة 1834 يرسل إلى الجزائر بعد استفحال وباء الكوليرا في الجنود الفرنسيين، أقام بمعسكر أثناء معاهدة التافنة واستطاع من خلالها رصد جميع القبائل المؤيدة للأمير عبد القادر وعمل على مداواة جرحى عين ماضي وكذلك أسرة الأمير، سنة 1840 يلتحق باللجنة العلمية لاكتشاف الجزائر في قسمها التاريخي والجغرافي، يعد من أشد المدافعين عن حقوق الكولون في امتلاك أراضي الجزائريين ليكافئ كمحافظ لمدينة الجزائر سنة 1870. ينظر:

-Narcisse faucon, Livre d'or de l'Algérie, Challamel et cie éditeurs, Paris, 1889, p-p 631-638

Melchior Joseph- Eugène Daumas: جنرال وسناتور وكاتب، دخل الجزائر سنة 1835، شارك في حملات معسكر وتلمسان تحت قيادة الماريشال كلوزل، اهتم كثيرا بدراسة اللغة العربية والعادات الجزائرية، بعد التوقيع على معاهدة التافنة يعين كقنصل عام لدى الأمير عبد القادر بمعسكر (1837-1839)، في عهد بيجو أسندت له مهمة شؤون الأهالي لكامل القطر الجزائري وإعادة هيكلة المكاتب العربية، عين كمرافق للأمير بسجنه بقلعة لامالق. ينظر:

- Narcisse faucon, Op.Cit, pp 196.197

[53] Marcel Emerit, Op.Cit, p165.

[54] برونو اتيين، المرجع السابق، ص 193.

[55] Alex Bellemare, Op.Cit, p211.

[56] Edmond Pellissier de Reynaud, Annales Algériennes, Tome Premier, Librairie bastide, Alger, 1854, pp 359,376.

[57] Victor-Amédée Dieuzaide, Histoire de l'Algérie de 1830-1878, Tome 2, Imprimerie de l'association ouvrière, Oran, 1883, p 362.

[58] Georges Yver, Les correspondances du capitaine Daumas consul de France à Mascara 1837-1839, Op.Cit, p 284.

[59] Corneille Trumelet, Op.Cit, p 112.

[60] Warnier A, Op.Cit, p 202.

[61] أديب حرب، المرجع السابق، ص ص 30-32.

[62] Achille Fillias, Histoire de la conquêt et de la colonisation de l'Algérie (1830-1860), Arnaud du vresse Libraire-éditeur, Paris, 1860, p 243.

[63] Christian P, Op.Cit 51, p 98.

[64] Jules Ladimir, Les guerres d'Afrique, Renautl B et cie Libraires éditeurs, Paris, 1859, p 199.

[65] Corneille Trumelet, Op.Cit, p 111.

[66] Arsène Berteuil, L'Algérie Française, Dentu Libraire-éditeur, Paris, 1856, p 341.

[67] Alex Bellemare, Op.Cit, p192-194.

[68] Arnaud T, Op.Cit, p 361.

[69] Léon Roches, Op.Cit, pp115-148.

[70] Louis Lataillade, Abdel-Kader Adversaire et ami de France, Editions Pygmalion/Gérard Watelet, Paris, 1984, pp 96-98.
[71] Léon Roches, Op.Cit, pp120-121.
[72] يوسف مناصرية، مهمة ليون روش في الجزائر 1832-1847، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 31.
[73] Arsène Berteuil, Op.Cit, p 344.
[74] Marcel Emerit, Op.Cit, pp 188,192,196.
[75] يوسف مناصرية، المرجع السابق، ص 30.
[76] Arnaud T, Op.Cit, p 371.
[77] فالي Valée: شارك بكل همة ونشاط في الحروب الكبرى للإمبراطورية الفرنسية، رقي إلى رتبة جنرال سنة 1814، قائد لفرقة المدفعية في جيش دامريمون لحصار قسنطينة الثاني سنة 1837، حيث لقي هذا الأخير حتفه فأصبح فالي قائد للجيوش ومن ثم حاكم عام للجزائر وبقي في هذا المنصب إلى 29 ديسمبر 1840 حين عوض بالجنرال بيجو. في 28 أكتوبر 1839 قام فالي بعبوره الشهير "للبيبان" أو "أبواب الحديد" فاتحا ممرا بريا بين قسنطينة والجزائر العاصمة، اعتبره الأمير عبد القادر خرقا لحرمة أراضيه ولمعاهدة التافنة فتجدد القتال. ينظر:
- Narcisse faucon, Op.Cit, pp 617.618.
[78] إسماعيل العربي، "سفارة ميلود بن عراش لدى الملك لويس فليب"، مجلة التاريخ، الصفحات 101-130، الجزائر، جويلية 1978، ص ص124-127.
[79] شارل هنري تشرشل، نفس المصدر، ص ص 207-219.
[80] أدريان بيربروجير Adrien Berbrugger: يعتبر من الأوائل الذين وقفوا على حيثيات ووقائع الاحتلال في عقوده الأولى، وساهم فيه بقلمه وفكره وأدواره الطلائعية برحلاته وكتاباته، قدِم إلى الجزائر رفقة الماريشال كلوزل كسكرتير خاص، ترأس تحرير جريدة المرشد الجزائري Moniteur Algérien شغل منصب محافظ لمكتبة ومتحف الجزائر، كان يمثل لدى الإدارة العسكرية بنك معلومات ضخم عن دقائق البلد والمجتمع، تشهد له صفحات المجلة الإفريقية التي ترأسها إلى وفاته (1856-1869)، كانت له زيارتان مشهورتان إلى مناطق سيادة الأمير عبد القادر الأولى في فترة معاهدة التافنة أواخر 1837 وبداية 1838 إلى وانوغة (برج حمزة) وأخرى بعد الحرب الشرسة سنة 1841 إلى مقاطعة مليانة لتبادل الأسرى أشرف عليها أسقف الجزائر Dupuch. ينظر:
- Auguste Cherbonneau, Nécrologie, in-Revue Africaine, Volume 13, A. Jordan Libraire-éditeur, Alger, 1869, p-p 319-324.
[81] مقدمة المترجم، أدريان بيربروجير، المصدر السابق، ص11.
[82] أديب حرب، المرجع السابق، ص 159.
[83] ابن عودة المزاري، المصدر السابق، ص173.
[84] Carlos Bouville, Op.Cit, pp 23-26.
[85] Georges Yver, Les correspondances du capitaine Daumas consul de France à Mascara 1837-1839, Op.Cit, p 334.
[86] Corneille Trumelet, Op.Cit, pp 115-116.
[87] Camille Rousset, L'Algérie de 1830 à 1840: les commencements d'une conquête, Nourrit et Cie Imprimeur-éditeur, Paris, 1887, pp 350-351.
[88] ولفريد بلنت سكاون، صقر الصحراء، تر محمد حسن صبري، مركز الأهرام للنشر، القاهرة، 2016، ص ص 222، 226.
[89] أحمد توفيق المدني، "أبطال المقاومة الجزائرية: حمدان عثمان خوجة،أحمد باي قسنطينة، الأمير عبد القادر والدولة العثمانية"، مجلة التاريخ، (الصفحات 33-125)، الجزائر، أفريل 1977، ص ص124-125.
[90] Edmond Pellissier de Reynaud, Op.Cit, pp 456-459.
[91] Achille Fillias, Op.Cit, pp 240-241.
[92] Alex Bellemare, Op.Cit, p191.
[93] بن يوسف تلمساني، الطريقة التجانية وموقفها من الحكم المركزي بالجزائر (الحكم العثماني-الأمير عبد القادر-الإدارة الاستعمارية) 1782-1900، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، غير منشورة، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، 1998/1997، ص194.
[94] Christian P, Op.Cit, pp 96-97.
[95] Louis Rinn, Op.Cit, pp 427-428.